صور من المجتمع الأندلسـي رصدتها عيون الشعراء

الدكتورة زينب بوصبيعة
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية ــقسنطينة

الملخص:

إن بحث "صور من المجتمع الأندلسي رصدتها عيون الشعراء"، رسم لنا لوحة متكاملة الجوانب، عبّرت باللون والصورة عن الحياة الاجتماعية الغنية بمخزونها الثقافي والأدبي.

وتحدث عن الأسرة وذكر كل ما يتعلق بها من عادات وتقاليد، مبينا حرص الأندلسيين على الزواج باعتباره فضيلة دينية واجتماعية كما أشار إلى المناسبات العائلية السعيدة والحفلات والولائم التي تقام غالبا بمناسبة الزواج أو الختان.

كما حدثنا عن مجالس الموسيقى والغناء التي حظيت هي الأخرى بعناية الأندلسيين، فأقبلوا عليها وخصصوا لها الأماكن والأوقات الملائمة .

وقدم لنا الشعر معلومات دقيقة عن فهمهم للموسيقى ومعرفتهم بآلاتها المختلفة، مما يدل على إحساسهم المرهف وذوقهم الحضاري الرفيع.

Abstract :

The study of «social scenes of the Andalusian society was observed by the poets' eyes»; their study painted for us a full representation of all aspects, expressing with colours and images the cultural and educational wealth of the social life.

This study was also interested in the family life ; it mentioned all its aspects relating to habits and traditions. At the same time, such study revealed the concern of the Andalusians about marriage as a religious and social value.

This study also described the happy events and ceremonies in families, as well as feasts, which often characterize marriages circumcisions.

We also learnt from this study about musical and song gatherings, which were favoured by the andalusians. The latter reserved the appropriate places and times for such events.

Their poetry brought us accurate information about their understanding of music and their knowledge of the different musical instruments, which indicates their delicate sensitiveness, as welles as their high and civilized appreciation of arts.

الإنسان مخلوق اجتماعي، وهو بحكم هذه الطبيعة يقع تحت الرغبة الملحة في أن ينقل أفكاره وتجاربه إلى من حوله من الناس، لذا فمهما كان الشاعر ذاتيا يتعمق وجدانه الخاص، فإنّه لا يمكن أن يكون فردا مستقلا عمّن حوله، لأنه مرتبط بعالم الحياة والنشاط الإنساني . ومهما كان مذهبه- فهو المرآة التي تتجلى فيها صورة المجتمع بقيمه وأحلامه، وآماله وآلامه، وعاداته وتقاليده، ولعل هذا الأمر هو الذي دفع باحثا مثل "غرسية غومس" إلى القول بأن بضعة أبيات من الشعر ربما كانت أدل على روح قوم من صفحات طويلة من التاريخ[1]، لذا سنحاول فيما يأتي قراءة الشعر العربي في الأندلس والوقوف عند بعض الصور والمشاهد الاجتماعية، التي تتعلق بالمناسبات السعيدة في حياة الإنسان المسلم ومن أبرزها:

1- الزواج وعاداته

إن الزواج هو أول لبنة يضعها الإنسان في صرح الحياة الاجتماعية، بل هو أهم دعائم المجتمع الإنساني، لذا وقفت النصوص الشعرية على تسجيل العادات والتقاليد المتعلقة به بدءا من مراسمه الأولى، والتي كانت تنطلق . غالبا . في الأندلس من الترغيب في الزواج والحرص عليه تحقيقا لغايات سامية: دينية، وأخلاقية، صحية واجتماعية، لأنه السبيل الأنجع لسلامة المجتمع، والطريق الصحيح للحفاظ على بقاء النوع.

لقد كان يسيطر على المجتمع الأندلسي إحساس حاد بخطر العزاب على المجتمع وقيمه، وامتد ذلك الحرص إلى الحكام، فابن عبدون ك . رجل سلطة . نراه يشتط، ويطلب من كل من له غلام أو ابن عازب، أن يوصيه وينهاه عن إتيان الشر، بحيث لو وقع أمر منكر يؤخذ من له ابن عازب، ويؤدب الشيوخ على ذلك، ويغرمون حتى ينقطع دابر

[1] – غومس غرسية، الشعر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، النهضة المصرية، 1955، ص 122.

الشر[1].

ومما رواه ابن حزم في كتابه طوق الحمامة: أن المرأة المسنة الصالحة، كانت تحرص على تزويج البنات اليتيمات وتسعى لذلك سعيا حثيثا[2]، وكان الناس يقبلون على الزواج حتى في أيام الفتن والحروب، والمجاعات ما داموا يحسون بشيء من الأمن.

وقد سجل لنا الشعر كثيرا من مظاهر الزواج وعاداته، ولعل أبرز تلك العادات، هو أن الفتاة كانت تزف من بيت أهلها إلى بيت الزوجية تصحبها الموسيقى، وتحمل البغال أثاثها[3]، وترتدي العروس أفخر الملابس، وفي الغالب كان لونها يميل إلى الحمرة والصفرة، لأن الشعراء قد أشاروا إلى تلك الملابس الزاهية، وبخاصة في حديثهم عن مظاهر الجمال في الطبيعة التي آسرتهم، يقول أبو بكر بن نصر: [الكامل]

وكأنّما تلك الرياضُ عرائسٌ ملبوسهنّ مُعصْفَرٌ ومُزعفرُ

أو كالقيان لبسن موشى الحُلى فلهُنّ في وشي اللباس تبختر[4]

وإذا كان الشاعر تحدث عن الرياض وشبهها بالعرائس في وشيهن وزينتهن وأفخر ملابسهن، فهذا لأن شعراء الأندلس كانوا مغرمين بالطبيعة وجمالها، فشبهوها بالنساء الجميلات أو العرائس، كقول ابن سارة: [الكامل]

أمّا الرياض فإنهنّ عرائسٌ لم يحتجبن دارعين الكالي

---

[1]- ينظر: حسن أحمد النوش، التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ط1، بيروت: دار الجيل، 1992 ص 115.

[2]- ينظر: ابن حزم، طوق الحمامة في الألفة والألاف، تح فاروق سعد، مكتبة الحياة، بيروت (دت) ص 140.

[3]- ينظر: ليفي بروفنسال، حضارة العرب في إسبانيا، ترجمة قرطوط دوقان، بيروت: د.ت، ص 260.

[4]- الضبي، أحمد بن يحي بن أحمد، بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، مدريد: 1889، ص 502.

جاء الربيع لها بنقد مهورها دفعا ولم يبخل بوزن الكالي[1]

هذا عن العروس ولباسها الفاخر، أما صديقات العروس فكنّ يشاركن كذلك في الابتهاج بالحفل، ويقفن في صفوف منتظمة إلى جانب العروس مرتديات أفخر الملابس ذات اللون الأحمر كأنهن قنان ملئت خمرا، يقول ابن حمديس:

وكأنما صورُ القنانِ وقد مُلئتْ إلى لهواتها خمرًا

بيض الحسان وقفن في عرس لما لبسن غلائلا حُمْرًا[2]

وقد صور الشاعر هنا أيضا عادة من عادات الأندلسيين، وهي أنهم كانوا يملؤون دنان الخمر ويرصونها إلى بعضها في صفوف منتظمة.

وهناك من الشعراء من رسم لنا بعض مظاهر الزينة التي كانت تتحلى بها العروس مثل الخضاب بالحناء، وهو عبارة عن عادة قديمة عرفتها المجتمعات العربية ولا زالت موجودة إلى يومنا هذا، قال الشاعر عبد الله بن المهيرس:

وهبْها قينةً تجلى عروسا خضيب الكفِّ قانية الخضاب[3]

والملاحظ هنا هو تتبع الشعراء لأوصاف العروس بكل دقة، إذ لم يغفلوا حتى مشيتها وسط الخدم والوصيفات، وهذه الصورة أسرت الشعراء وأضحت محل إعجابهم فاستعاروها للممدوح، ومن ذلك قول ابن عبد ربّه في وصف سفينة وسط البحر: [البسيط].

بحرٌ يسيرُ على بحر بجاريةٍ للبحر حاملة بالبحر تُحتمَلُ

---

[1]- ابن سارة، حياته وشعره، رسالة ماجستير، نقلا عن حسن أحمد النوش، المرجع السابق، ص 126.

[2]- ابن حمديس، الديوان، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص 109.

[3]- المقري، نفح الطيب، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار الكتاب العربي، 1988 ص 396/4.

كأنمّا جبل في الماء منتقلٌ   يا مَنْ رأى جبلا في الماء يَنْتقِلُ

تحكى العروسَ تهادي في تأوُّدِها   وقد أطافتْ بها الدايات والخَولُ[1]

وهناك من الشعراء من كان ينظم القصائد الرقيقة للتهنئة بمناسبة الزواج، ثم يسترسل في تصوير العادات والتقاليد التي كانت تصاحب حفلات الزواج، وبخاصة الحفلات التي كان يقيمها الحكام، ومن تلك الأشعار البديعة قصيدة لابن زيدون أنشدها في مدح ملك إشبيلية المعتضد ابن عباد، وهنأه فيها بزواجه السعيد، واستهلها بذكر حاجة المجتمع القصوى والملحة إلى ذلك الزواج، لتزدان المملكة بعروس جميلة كريمة فقال: [الكامل]

أخطُبْ فملكُكَ يفقِدُ الإملاكا   واطلُبْ فسعدُكَ يضْمنُ الإدراكا

واسْتَهْدِ من أحمى مَراتعَهَا المها   فالصعبُ يسمح في عِنَانِ هواكا[2]

ثم انتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن ليالي العرس، والحفلات العامرة التي تتحقق بها أعز الأماني والأحلام، ولم يغفل وصف جمال العروس، وكيف أنها تزداد بهذا الزواج السعيد تألقا وبهاء، وأنها ستحقق له أغلى ما يطمح إليه الإنسان من ذرية ونسل سام سمو الكواكب في السماء: قال [الكامل]

هذي الليالي بالأماني سمْحةٌ   فمتى تقلْ: هاتي، تقلْ لك: هاكا

فاعقلْ شوارِدَهَا إزَاءَ عقيلة   وافتْ مبشّرَةً بنيلِ مُنـاكا

أهدى الزمان إليك منها تحفة   لم تَعْدُ أن قرّتْ بها عيناكا

قُرِنْتَ ببدرِ التّمِّ، كافلة له   أنْ سوفَ تُتبعُ بفرقدينِ سماكا[3]

---

[1]– ابن عبد ربه، الديوان، ط1، تحقيق محمد التونجي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1993، ص 138.

[2]– ابن زيدون، المصدر السابق، ص 265.

[3]– ابن زيدون، الديوان، تح: كرم البستاني، دار الطباعة والنشر: بيروت، 1984، ص 256.

وبعد ذلك، يتقدم الشاعر إلى الملك وينصحه بالتمتع بالزواج السعيد، وتشنيف سمعه بغناء القيان، وتلقى الكؤوس المترعة استكمالا للفرحة والسرور . حسب اعتقاده . من [الكامل]

فتملَّ في فرشِ الكرامة ناعما واعقد بمرتبة السرور حُباكا
وأطِلْ إلى شدو القيانِ إصاخةً وتلقّ مُتْرَعَةَ الكؤوس دِراكا[1]

ثم ألمع الشاعر بعد ذلك إلى عادة كانت سائدة عندهم في ذلك العهد، وهي أن الملك أو الأمير. العريس . كان يحتجب عن الناس أسبوعا كاملا يقضيه مع عروسه وذلك الأمر يحدث وحشة للشاعر وغيره من المقربين، (ولعل ذلك الأمر هو الذي أوحى للناس ما يعرف اليوم بشهر العسل) ثم يستدرك ويقول: إن وحشتي لا يهونها عليّ سوى علمي بأنك ستكون سعيدا ناعم البال فهنيئا لك: [الكامل]

أسبوع أنس محدثٌ لي وحشة عِلْما بأنّي فيه لستُ أراكا
فأنا المعذَّبُ غيرَ أنّي مُشْعرٌ ثِقَةً بأنّك ناعم فهناكَا[2]

وأما فيما يتعلق بالمرأة في المجتمع الأندلسي فالملاحظ أنها كانت تحظى بالمكانة المرموقة، وبالحرية . فهي غالبا . ما تستشار في أمر زواجها، فقد سجل لنا الشاعر يحي الغزال قصة فتاة خيّرها أبوها بين شخصين شيخ كبير غني، وشاب فقير قوي، فقال: [الوافر].

وخيّرها أبوها بين شيخٍ كثير المالِ أو حَدَثٍ فقير
فقالت: خُطّتا خَسْفٍ وما إنْ أرى من حُظوةٍ للمُسْتخيرِ
ولكنْ إن عزمْتَ فكلُّ شيء أحبّ إليَّ من وَجْهِ الكبير

[1]- المصدر السابق، ص 266.

[2]- المصدر نفسه، ص 167.

لأنَّ المرءَ بعد الفقرِ يُثرى وهذا لا يعُودُ إلى صغيرِ[1]

ويستنتج من ذلك أن المرأة – في المجتمع الأندلسي- كانت تتمتع بقسط وافر من الحرية، إلى جانب تمتعها برجاحة العقل وحسن البصيرة وبعد النظر، ويتجلى ذلك في جواب الفتاة المدعم بالحجج والبراهين المنطقية، واختيارها الموافق لمنطق الفطرة الإنسانية السليمة.

وعلى النقيض من هذه الصورة، فقد نجد صورة الأمّ المتعسفة، التي تتحكم في مصير ابنتها وترغمها على الزواج ممن لا تحب، إرضاء لطموحها هي دون مراعاة لشعور البنت، كما فعلت إحداهن إذ قامت بتزويج ابنتها من الشاعر أبي المطرف عبد الرحمن بن هشام[2]، هذا الذي لم يتوان في وصف سلوك تلك الأم، مفتخرا بنفسه، معددا صفاته الحميدة التي جعلته كفءا لتلك العروس الكريمة الأصل، فقال: [الطويل]

وجالبةِ عذرا لتصرفَ رغبتي وتأبَى المعالي أن تُجيزَ لها عذْرا
يكلّفها الأهلونَ رَدّي جَهالةً وهل حَسَنٌ بالشمسِ أن تمنع البدرا
وماذا على أمّ الحبيبة[3] إذْ رأتْ جلالةَ قدري أن أكون لها صِهرَا[4]

إلى قوله:

---

[1]- يحي بن حكم الغزال، الديوان، ط1، تح: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1993، ص 62.

[2]- أبو المطرف: المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصر، كان أديبا حسن الكلام جيد القريحة، توفي عام 414هـ، ينظر: ابن بسام، الذخير، ق1. 48/1 وما بعدها.

[3]- أم الحبيبة أو حبيبة هي مشنف زوج سليمان بن الحكم، وابنتها التي رأت تزويجها من الشاعر هي "حبيبة"، ينظر: المصدر نفسه، ص 55.

[4]- المصدر نفسه، ص 56.

وإنِّي لأرجو أن أطوَّقَ مَفَخرِي بملكِي لها وهي التي عظمت فخرا
وإنّي لطعّانٌ إذا الخيلُ أقْبَلتْ جرائدُها حتى تري جونها شقَرا
وإنّي لأولى الناسِ من قومها بها وأنبههم ذكرًا وأرْفعُهم قَدْرَا[1]

ويفهم من ذلك أن هذا الشاعر كان هو الزوج المختار من قبل تلك الأم، ولعل هذا الأمر هو الذي دفعه إلى الاعتداد بنفسه، فرأى أنه هو الزوج الكفء لها دون سائر الأقارب، لما يتوفر فيه من الصفات التي يحق للرجل أن يفخر بها، ثم راح يعدد تلك الخلال مفتخرا بكل ما كان يمدح به الرجل العربي قديما، أو يفخر به شعراء العرب: من فروسية وإقدام وشجاعة في ملاقاة الفرسان وطعانهم، وختم قصيدته بذكر المقام الرفيع الذي كان يتبوأه في قومه، لذلك رأى أنه أحق وأجدر بها من غيره.

كما نقل لنا الشعر أيضا صورا عن الأخلاق الرفيعة التي كانت تتمتع بها المرأة العربية الحرة، ومنها صورة البنت البارة التي تعنى بموافقة الوالدين ومباركتهما لزواجها ويظهر ذلك من موقف "بثينة" ابنة الملك محمد المعتمد بن عباد، التي كتبت إلى أبيها – وهي في براثن الأسر عندما دالت دولته وكان سجينا في أغمات– وصورت له ظروفها القاسية، واستأذنته في الزواج ممن تقدم لخطبتها، وطلبت منه إبداء الرأي وإسداء النصيحة، كما طلبت أيضا رأي الأم وتمنت مباركتها لذلك الزواج[2]: [الكامل]

اسمعْ كلامي واستمعْ لمقالتي فهي السلوكُ بدتْ من الأجيادِ
لا تنكروا أني سُبيتُ وأنّني بنتٌ لملك من بني عبادِ
ملكٌ عظيم قد تولى عصرُه وكذا الزمان يؤول للإفساد

[1]– المصدر نفسه، ص 56.

[2]– المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، بيروت، دار الكتاب العربي، 1988، 284/4.

قام النفاق على أبي في ملكه فدنا الفراقُ ولم يكن بمرادِ
فخرجتُ هاربةً فحازني امرؤٌ لم يأتِ في إعجاله بسدادِ
إذ باعَنِي بَيع العبِيد فَضَمَّني مَن صانني إلاّ من الأنكَادِ
وأرادني لنكاحِ نجلٍ طاهر حسنِ الخلائق من بني الأمجادِ
فعساك يا أبتي تعرّفني به إنْ كان ممّنْ يرتجَى لودَادِ
وعسى رميكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليُمن والإسعادِ

ويروى أن المعتمد قد رضي بزواجها وباركه، وأرسل إليها من منفاه بأغمات جواب الموافقة، وزودها بالنصيحة البناءة التي تعينها في حياتها الزوجية على غرار ما يفعله الآباء في مثل هذه المناسبات فقال: [السريع]

بنيتي كوني به برّة فقد قضى الدهرُ بإسعافهْ[1]

أمّا في داخل البيوت والقصور، فقد كانت الزوجة تحظى بالمعاملة الحسنة وتنزل المنزلة الرفيعة، وقد أبدى الرجل الأندلسي كثيرا من فنون التعلق بزوجته، وخير مثال على ذلك هو ما بلغنا عن المعتمد بن عباد الملك الشاعر، فعلى الرغم من كونه ملكا ابن ملك، والمكانة العظيمة التي كان يحتلها بين رعيته وملوك عصره، فإنّه عرف بحبه الكبير لزوجه، وبحسن معاملته لها، وتعلقه بها، مما دفعه إلى صنع قصيدة بدأ كل بيت فيها بحرف من حروف اسمها "اعتماد" تخليدا لاعتزازه وولعه بها: [المتقارب]

أغائبة الشخص عن ناظري وحاضرةً في صميم الفؤاد
عليك سلام بقدر الشجو ن ودمع الشؤون وقدر السُّهادِ
تملكْتِ منّي صعْبَ المِرا مِ وصادفْتِ وُدي سهلَ القيَادِ

[1]- المعتمد، المصدر السابق، ص108، وينظر: نفح الطيب، 284/4. إلا أن كلمة "الدهر" وردت فيه "الوقت".

مُرادي لقياكِ في كلّ حينٍ فيا ليت أنّي أعْطى مرادِي
أقيمي على العهد ما بيننا ولا تستحيلي لِطول البعادِ
دسَسْتُ اسمكِ الحلوَ في طيِّه وألّفتُ فيه حروف اعتماد[1]

كما رسم الشعر صورة وفاء الزوج الأندلسي لزوجته بعد موتها أيضا، وتتجلى تلك الصورة في الأسى الذي كان يبديه الزوج لمفارقة الزوجة، وفي ألوان الحرمان التي كان يأخذ بها نفسه بعد موتها وفاء لذكراها، وإخلاصا لها، ومن أمثلة ذلك ما ذكر عن الشاعر أبي محمد ابن القبطرنة[2]، الذي ألزم به نفسه بالحرمان الشديد فقال: [الوافر]

معاذ الله أن أسلو ببدر وأنّ أصبُو إلى كأس ولهو
وأن ألهو من الدنيا بشيء وأمّ الفضل يا أسفي بقبر[3]

وإذا أخذ هذا الشاعر على نفسه أن لا يلهو ولا يصبو إلى امرأة جميلة أو كأس خمر بعد وفاة زوجته، وذلك لا يعني أن الأزواج كلّهم على وفاق مع زوجاتهم، لأن الشعر الأندلسي قد حفظ لنا أيضا شيئا من شكوى الأزواج، فهذا عبد الملك بن جهور نموذج للرجل الأندلسي الذي أبدى تبرما شديدا من أخلاق زوجته، وبخاصة تلك الأخلاق المنفرة؛ كالتلون ونكران الجميل، إلى جانب أنها كانت تكثر من الشكوى والتبرم ولا تحس بالرضا مطلقا، مع كونها سيئة المنبت، فطلقها وتناول بالإساءة من كان سببا في زواجه بها فقال: [مجزوء الكامل]

---

[1]- ديوان المعتمد، ص 8.

[2]- أبو محمد بن القبطرنة أحد وزراء المتوكل بن الأفطس في عهد ملوك الطوائف بالأندلس.

[3]- الفتح بن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تح: محمد العنابي، ط: باريس، تونس، دار الكتب الوطنية دت، ص 151.

من ذا يفكُّ إساريه ويُحلُّ عقْدَ عقاليهْ
من ذا يخلّصُ من هوى من حينِهِ في الهاويهْ
إنّي بليتُ بشرّ من تحت السماء العاليهْ
لو كنت تبصرها سألـ ت الله منها العافيهْ
ما أبصرتها مقلتيٍ مذ أبصرتها راضيه
تمضي السنون وتنقضي وحياتُها متماديهْ
ولها أُهيلٌ منتنٌ عُورُ الوجوه سواسيه
يا يوم معرفتي بهم يا زاني ابن الزانيه
أنشبتني وغررتني وقعدت عنّي ناحيه
ما كان هذا منك في الودّ القديم جزائيه[1]

كما أخبرنا أبو محمد بن سارة الشنتريني عن طلاقه لزوجته لاتصافها بالنفاق والخبث والتلون أيضا، حيث قال: [الكامل]

أما الزمان فرق له من طلة كانت تطل[2] دمي بسيف نفاقها
الذئبة الطلساء عند نفاقها والحيّة الرقشاء عند عناقها[3]

وقد وفق الشاعر في رسمه لصورة المنافق وتجسيده للنفاق في صورة السيف القاطع لإبراز خطورته على الحياة الأسرية، . التي تتطلب أصلا الصراحة والوضوح والإخلاص .

[1]- مجهول، أخبار مجموعة مجريط، 1867م، ص159-160، نقلا عن: حسن أحمد النوش، مرجع سابق، ص 138-139.

[2]- تطلُ: تهدر

[3]- المرجع السابق، ص 139.

كما شبه المرأة المنافقة بالذئبة الطلساء، والحية الرقشاء التي تتلون بتلون البيئة فتخدع بذلك الناظرين. وهكذا كانت رحلة الحياة مع الأزواج، والتي كانت تنتهي مع بعضهم الآخر على هذا النحو كما هي الحياة:

تعطيك من طرف اللسان حلاوة وتروغ منك كما يروغ الثعلب.

2-الأولاد وما يتعلق بهم:

ومهما يكن من أمر عناية الأندلسيين بالحفلات والأعراس، فإنّ المهمة الجوهرية للمرأة هي إنجاب الأطفال، وكانت المرأة الولود محل احترام وتقدير في المجتمع الأندلسي -كما هو الشأن في المجتمعات العربية والإسلامية- ومن هنا فميلاد الطفل كان عبارة عن الحدث السعيد في الأسرة، فتقام لأجله الحفلات الفخمة وبخاصة إذا كان المولود ذكرا وكانت التقاليد تحتفي بوفادته ويعد ذلك بداية سعيدة في الحياة الزوجية، وما أكثر النصوص الشعرية المعبرة عن هذه المناسبة، بل هناك من الشعراء من كان يسارع إلى التهنئة قبل أن يرى الطفل النور، وقد بشر الخليفة الحكم المستنصر[1] يوما في خلوته بحمل جاريته صبح، وكان الشاعر جعفر بن عثمان المصحفي حاضرا فأنشده: [الوافر]

هنيئا للإمام وللأنام كريمٌ يستفيدُ على كرام

مرحى للخلافة وهو ماءٌ ومأمولٌ لآمال عظام

أضاء على كريمته ضياه فلم تعلمْ بغاشية الظلام

ولم لا يستضاءُ بجانبيها وبين ضلوعها بدرُ التمام[2]

---

[1]- الحكم المستنصر بالله، تولى الحكم بعد أبيه عبد الرحمن الناصر لدين الله، كان حسن السيرة فاضلا عادلا، سار على نهج أبيه في سياسته، وكان محبا للعلم والعلماء، توفي سنة 366هـ بعد عام من أخذ البيعة لابنه هشام.

[2]- ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ط1، بيروت: 1967، 237/2.

وقد جاءت المبالغة هنا مستساغة لكونها في مجال المدح والتقرب من السلطان ومحاولة إرضائه، وحينما أنجبت صبح هشاما، وأتى البشير للحكم بالخبر، وانفسح المجال أمام الشاعر الجزيري لينشد من وحي تلك اللحظة المباركة شعرا رقيقا، يصور فيه وسامة الطفل وشجاعته المترقبة، لأنه جاء ليرث الملك ويثبت أركان الدولة: [مخلع البسيط].

أطلعَ البدرُ في سمائه واطّرَدَ السيفُ في قرابه
وجاءنا وارثُ المعالي ليثبتَ الملك في نصابه
بشّرنا سيدُ البرايَا بنعمة الله في كتابه
فلو منحتُ البشير عُمري لكان نزَرًا لمن أتى به[1]

وفي المجال نفسه، نجد الشاعر ابن عمار يتقدم بالتهنئة للمعتمد بن عباد حينما رزق بولدين ذكر وأنثى فقال: [البسيط]

أهنأ بنجليك من أنثى ومن ذكر لا نعدم الضوء بين الشمس والقمر[2]

ويفهم من ذلك أن الشاعر هنّأ هنا صديقه الملك –المعتمد بن عباد– بالمولودين إذ لا فرق عندهم بين الأنثى والذكر، فكل منهما يعد قدومه قدوم عز وهناء، والصورة التي رسمها الشاعر في هذا البيت صورة بليغة، إذ شبه المولودين بالشمس والقمر في الرفعة والعلو، فكل واحد منهما لا يمكن الاستغناء عنه، وهذا يدل أيضا على المكانة المرموقة التي تتبوأها المرأة في المجتمع الأندلسي آنذاك.

ومن الشعراء من كان يجنح إلى المبالغة أثناء التهنئة بالمولود الجديد، مثل أبي بكر محمد بن القصيرة الذي راح يعطي تفسيرا لاستهلال الطفل بالبكاء ساعة الولادة فقال:

---

[1]– ابن دحية، المطرب من أشعار أهل المغرب، تح: إبراهيم الأبياري وآخرون، دار العلم للجميع، مصر، دت، 237/2.

[2]– ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح: إحسان عباس، ط 1978، ص 4، 230/1.

[الكامل]

لم يستهل بكًا ولكن منكرا أن لم تُعدَّ له الدروعُ لفائفًا[1]

وللبيت دلالات عديدة منها: أن والد هذا الطفل كان بطلا ومحاربا شجاعا لذا فمولوده مثله، بكى لأنه لم يستقبل بلفائف الدروع، كما يدل أيضا على أن الحرب في الأندلس كانت متواصلة لا تعرف التوقف إلا ناذرا، ولعل ذلك هو الذي دفعهم إلى تهنئة الآباء بالمولود الذكر لأنه سيكون من الأبطال الشجعان.

وما يؤيد هذه الفكرة الأخيرة، هو وصف الوليد بالشجاعة والفروسية من قبل الشاعر الإشبيلي أبو بكر محمد بن محمد المعروف بالأبيض، الذي توفى حوالي سنة 525هـ.

إلا أن الشاعر قد بالغ في وصفه للمولود، حتى جنح به خياله إلى وصف حركات الطفل وسلوكه قبل الولادة وبعدها، فقال: [البسيط]

أصاختِ الخيلُ آذانا لصرختهِ واهتزَّ كلُّ هِزَبرٍ عندما عطسَا

تعشّق الدرع مذْ شُدّتْ لفائفهُ وابغضَ المهد لما أبر الفرسا

تعلّمَ الركض أيامَ المخاضِ به فما امتطى الخيل إلاّ وهو قد فرسَا[2]

ولقد جرت عادة شعراء الأندلس على هذا النحو في تقديم تهانيهم للآباء السعداء بأبنائهم، مع ذكر الصفات المحببة لديهم، والتي كانت لا تخرج في مجملها عن الصفات المحببة لدى العرب قديما وهي: صفات السيادة والوسامة والشجاعة.

وبمتابعتنا للشعر الذي تناول الأسرة أو تحدث عن البيت الأندلسي وأجوائه العائلية بدا لنا أن البيت كان يعج بالأطفال والخدم طوال النهار، وكان الأب يمارس سلطة

[1]- ابن دحية، المصدر السابق، ص 76.

[2]- فرَسَ: حذق الفروسية، المصدر السابق، ص 76.

مطلقة في البيت، ويتمتع باحترام المرأة وتقدير الأطفال وطاعتهم له، ويشهد الشعر أيضا على حسن أخلاق الرجل في البيت ومع الأسرة، فالأب الأندلسي يبدو أنه كان عطوفا بالأبناء شغوفا بهم، لا يستطيع البعد عنهم، لذا كان يرسل بأفانين الشكوى والألم لدى فراقهم.

وأما الأطفال فكانوا ينالون من الرعاية والتربية ما يجعلهم رجالاً صالحين، وقد عني الشعر بتسجيل حدث الميلاد، وبخاصة ميلاد الذكور والذي يعد حدثا سعيدا، وقد أمدنا الشعراء بمعلومات مفصلة عن العادات والتقاليد التي كانت تتحكم في تصرفات الكبار أثناء عنايتهم بالطفل وحمايتهم له، منذ كونه رضيعا حتى يصير شابا يافعا، ويخبرنا الشاعر ابن رزين عن ذلك في بيت جاء في مدحه لابن لبون إذ يقول[1]:

ذاك الوفي الذي نيطت تمائمه عند الفطام على حلم ابن سيرين

ويؤكد هذا التصرف ابن زيدون في قوله[2]:

طالما نافرا الهوى منه غر لم يظل عهد جيده بالتميم

ولم يغفل الشعر تسجيل أدق التفاصيل إذ ذكر الأشياء التي كانت تستخدم تمائما كالسبج الذي تتخذ منه تمائم لمنع الحسد مثلا، وتستمر معهم عادة استخدام التمائم والتعاويذ حتى بعد مرحلة الطفولة كما يشهد بذلك شعرهم، فقد قال المعتصم عند وفاة إحدى حظياته[3]:

لما غا القلب مفجوعا بأسوده وفض كل ختام من عزائمه

---

[1]- هانري بيريس، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف، ترجمة: طاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1988، ص 263.

[2]- المرجع نفسه، ص 263.

[3]- المرجع نفسه، ص 263.

ركبت ظهر جوادي كي أسليه وقلت للسيف كن لي منتمائمه

وبعد هذه العادة الجاهلية التي أخبرنا بها الشعر، والتي هي في اعتقادنا عادة شعبية متعلقة ببعض الطبقات الاجتماعية فقط دون سواها، لأنها تتنافى مع التعاليم الإسلامية.

سنقف وقفة أخرى مع الطفل، وفي مناسبة عائلية مبهجة وهي: الختان، هذا الحدث السعيد في حياة الطفل المسلم يعد أول حدث يهدف إلى الحفاظ على حياة المسلم بطريقة علمية صحيحة وملموسة، وتظهر فيه العناية الكبيرة بالطفل، حيث يصبح محط الأنظار، ومحل التكريم الأسري. ويظهر الاحتفاء به في كثير من الحالات، وبخاصة فيما يتصل بالأمراء وعلية القوم، محتفظا بمظاهر المناسبات العامة، التي تقام لها الولائم الفخمة، وتنفق لأجلها الأموال الطائلة، وتشارك فيها طبقات أندلسية عريضة، وقد يدعى إليها علية القوم من خارج الأندلس أيضا. والاحتفال بمثل هذه المناسبة كان من التقاليد المعروفة في المشرق العربي أيضا، ولكنه في الأندلس كان يتسم بالفخامة والمبالغة أكثر، وكانت تلك الحفلات تعرف باسم: الإعذار أو الصنيع أو الطهور أو الختان.

ومما يذكر فإن الختان في الأندلس، اقترن –أحيانا– بفضيلة اجتماعية، إذ إن العظماء كانوا يتجنبون اختتان أولادهم منفردين، وقد ذكر أنه من مآثر المنصور مثلا: «أنّه لما ختن أولاده ختن معهم من أولاد دولته خمسمائة صبي، ومن أولاد الضعفاء عددا لا يحصى»[1]، كما يروى أنّه بذل أموالا باهظة في هذه المناسبة.

وقد صور الشعراء كثيرا من مظاهر هذه الاحتفالات التي كانت تقام لهذه المناسبة، فالشاعر الجزيري تحدث مثلا عن صنيع المنصور في ختان أحد أبنائه، وأشار إلى سخائه الذي لا يضاهيه سوى السحاب الممطر، لينعش الآمال بعد القحط الذي أصاب الناس بالقنوط في ذلك الوقت، فأنشد: [الكامل]

[1]– المقري، نفح الطيب، م س، 128/2.

أما الغمامُ فشاهد لك أنّه لا شكّ صنوك أو أخوك الأوحدُ
واقي الصنيع فحين تمّ تمامه في الصّحو، أنشأ ودقه[1] يتدفق
وأظنّه يحكيك جودا إذ رأى في اليوم بحرك زاخرًا يتفهقُ[2]

أما الوليمة التي أقامها المأمون بن ذي النون بقصره في طليطلة سنة 455 هـ، احتفالا بختان حفيده يحي، فقد وصف ابن حيان حفلها وصفا كاملا، بما في ذلك أثاث القصر الفاخر، ومظاهر الزينة، ونظام الخدم، وطريقة تقديم الطعام، وأنواع الطيب والأواني الفاخرة[3]، ولم ينس ما قدم للناس من نبيذ، ثم ذكر تعاقب المطربين، وقد بذهم مطرب إسرائيلي غنى بصوت شجي مقطوعة للشاعر عبد الله بن خليفة، نظمها خصيصا لهذه المناسبة، فيها تمجيد للخمرة المعتقة، ومجد فيها الأمير العظيم وتغنى بعزيمته القوية، وصنيعه الذي أحيا به سنة كادت أن تندثر. [المنسرح]

باكِرْ لبكرِ الدّنانِ إنّ هِدَاءَ العرُوسِ في السّحرِ
واشربْ عقَارا تخالُ حمرتها تحرقُ أيدي السّقَاة بالشّرر
فإن يحي أحيا بدولته ما قد محاه تصرّفُ القدرِ
مَلْكٌ هو الدّهرُ في عزيمتِهِ يَطلعُ فينَا بطلعةِ القمر[4]

وعلى الرغم من أن مقطوعة الشاعر تشكو من الضعف الواضح، إلاّ أن ابن حيان ذكر «أن الأمير قد خلع على المغني ثوبا أخضر مطرزا بالذهب ووصله بمائتي دينار ذهبا،

---

[1]- الودق: المطر.

[2]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 70/2.

[3]- ينظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق4. 128/1-137.

[4]- المصدر نفسه، ق4. 136/1.

كما خلع الأمير على سائر الطبقات»[1]. ويلاحظ ابن حيان بحسرة، أن هذا الصنيع الفريد لم يجد من الشعراء من يسمون إلى قدره ويحسنون وصفه... وقد أورد ابن بسام أبياتا للشاعر عبد العزيز محمد السوسي أحد ضيوف ابن ذي النون[2]، وقد مدح فيها المأمون، ومجد صنيعه في بنائه لذلك القصر الفخم حيث أقيم الحفل، وأشاد بالحفل المشرف الذي أشاع البهجة والسرور في الدنيا، فقال: [الكامل]

لما بنيتَ من المكارم والعُلا ما جاوز الجوزاء في الإجلال
أعملت رأيك في بناء مُكَرَّمٍ ما دار قطّ لآمل في بال
لو زاره كسرى أنوشروان لم يصرفْ إلى الإيوان لحظ مبال
يا ساقيّ الصهباء أين كبارها قد لذّ وِرْدُ القهوةِ السلسال
إعذار يحيي أبهج الدنيا وبيّن عذرَنَا في نخوةِ المختال
حشد السرور لنا طهور مطهّر من عائر الجبناء والبخّال
عرضٌ من الآلام يجلبُ صحّةً وطفيفُ نقْصٍ فيه كلّ كمال[3]

وهكذا أكد الشاعر على ضرورة الختان وأهميته لأن المتطهر يزداد به عافية وحسنا

أما الحفل الذي أقامه المعتضد لختان أبنائه، ودعا لشهوده علية القوم، فأصبح له شهرة أخرى تتصل بالتاريخ السياسي الأندلسي، وذلك بعد أن انتهز المعتضد هذه الفرصة السانحة للتخلص من عدد من زعماء البرابرة، أصحاب رندة، ومردود وأركشي بمكيدة قاسية، فقد روي أنه أدخلهم حمام القصر –متظاهرا بمزيد من الإكرام حسب عادة

[1]- ينظر: ابن بسام، المصدر السابق، ق4. 136/1.
[2]- المصدر نفسه، ق4، 126/1-127.
[3]- المصدر السابق، ق4، 126/1-127.

أهل الأندلس- ثم بناه عليهم ليموتوا اختناقا[1].

ويبدو من الشعر، أن المشاركة في خدمة الإعذار كانت سنة اجتماعية محمودة، فقد تقدم الشاعر أبو يحيى البلوي سنة 749هـ بالتهنئة والتمجيد لابن الخطيب بمناسبة ختان ولديه، عبد الإله وقمر العلا، مبديا تأله لأنه لم يتمكن من الحضور بنفسه ليقوم بشرف خدمة الإعذار قائلا: [الكامل]

لا عُذْرَ لي في خدمة الإعذَار ولئن نأى وطني وشط مزاري
أو عاقني عنه الزمانُ وصرفه تقضي الأماني عادة الإعصار
قد كنتُ أرغبُ أن أفوزَ بخدمتي وأحطّ رحْلي عند بابِ الدّار
بادِي المسرّة بالصنيع وأهله متشمرا فيه بفضل إزاري
من شاء أن يلقي الزمان وأهله ويرى جلالا شاع في الأقطار
فليأت حيّ ابن الخطيب مُلبيا فيفوز بالإعظام والإكبارِ
نجلاك قُطبَا كلِّ مجد باذخ أملانِ مرجُوّانِ في الأعسَارِ
عبد الإلهِ وصنوه قمرَ العُلاَ فرعَانِ من أصلٍ زكا ونجارِ[2]

وقد نظم الشعراء الشعر في مثل هذه المناسبات مهنئين ومباركين ذلك الصنيع الذي ويضفي على الطفل التطهير والحسن والصحة، كما جاء في قول الشاعر أبي بكر الجزار السرقسطي في تهنئته لأحد الآباء بختان ابنه مبرزا قيمة ذلك الفعل وأهميته:[3]

طهرته وهو المطهر إذا نشا لله فعل منك راق كماله

---

[1] - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح. كولان وليفي بروفنصال، ج3، ص 595.

[2] - ينظر: ابن دحية، المصدر السابق، 270/2-271.

[3] - هنري بيريس، المرجع السابق، ص 264.

فازداد بالتطهير حسنا مثل ما يزداد ضوء الشمع عند ذباله

ولعله من المناسب أن ننتقل إلى صورة أخرى من صور المجد الأندلسي في خضم الحياة السعيدة التي عاش في ظلها الإنسان الأندلسي، حيث الموسيقى والغناء والرقص واللهو، وقد استجاب الأندلسيون لتلك الحياة تماشيا مع الحضارة التي كانت نتاجا لما ابتدعه الإنسان من وسائل المتعة والترفيه في أوقات فراغه.

4- الموسيقى والغناء والرقص:

لقد أغرم الأندلسيون بارتياد مجالس اللهو في الأعياد والمناسبات السعيدة على نحو ما ذكرنا، كما تعلقوا بأمور اجتماعية أخرى، نشأت في ظل ميلهم إلى التسلية وحب الترويح عن النفس بأكثر الأساليب رقيا ورفعة، وقد ظهرت الموسيقى والغناء والرقص في الأندلس متألقة تحاكي روعة الفن والحضارة الأندلسية.

إلا أن الغناء والموسيقى في الأندلس لم يجدوا مؤرخا أديبا كأبي الفرج الأصفهاني الذي رسم لنا صورة مستوفاة عن الغناء والموسيقى، وطبقات المغنيين والقيان في كتابه الفريد "الأغاني"، وليس بين أيدينا الآن سوى الإشارة الهامة التي سجلها المقري في كتابه نفح الطيب[1]، عن كتاب لم يقدر لأحد أن يراه – حسب علمي- إلى عصرنا هذا ويسمى ذلك الكتاب "الأغاني الأندلسية" ليحيى الخدّج المرسي.

وعلى الرغم من ذلك يمكننا القول: إن الأصول الموسيقية التي وضعها زرياب[2]، وتلامذته منذ القرن الثالث الهجري كانت تمثل أساسا طيبا للموسيقى والغناء في الأندلس، وابن بسام يحدثنا في ذخيرته عن الشاعر ابن الحداد الذي ألف كتابا في

[1]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 185/3.

[2]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 125/3 وما بعدها.

العروض، ومزج فيه بين الأنحاء الموسيقية والآراء الخليلية، ردّ فيه على السّرَقُسْطي الملقبَ بالحَمار[1]، ونقض كلامه فيما تكلّم عليه من الأشطار[2].

وذاع أمر الموسيقى والغناء بين الناس، رغم معارضة الفقهاء ورجال الدين وصارت من مستلزمات الحياة الاجتماعية الحافلة بالملذات التي لا غنى عنها، وأصبح من المألوف في الأندلس وجود فرق من الموسيقيين المقيمين في قصور الخلفاء، وفي منازل أفراد من ذوي المكانة الاجتماعية والنفوذ، إلى جانب وجود فرق خاصة بالحفلات العامّة والخاصة، وكان الشغف بسماع الموسيقى عاما وشاملا لكل فئات المجتمع.

وشغف الأندلسي بالموسيقى والغناء يوحي بطرائف الأخبار وكثرة الأشعار المروية في ذلك المضمار منها؛ ما روي عن الأمير الفنان أبي الأصبغ عبد العزيز بن الناصر، الذي كان مغرما بالخمر والغناء، وحدث وأن ترك الخمرة وقاطعها، فقال أخوه الحكم المستنصر الحمد لله الذي أغنانا عن مفاتحته، ودلّه على ما نريد منه، ثم قال: لو ترك الغناء لكمل خيره، فقال الأمير: والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها، وأنشد: [الخفيف]

أنّا في صحَّة وجاهٍ ونُعْمَى وهي تدعو لهذه الألحانِ
وكذا الطيرُ في الحدائق تشدو للذّي سرَّ نفسهُ بالعَيانِ[3]

وهكذا أعطانا الشاعر تفسيرا جميلا لاتجاهه الفني، كما رسم لنفسه المتعلقة بالفن صورة جميلة مستوحاة من جمال الأندلس، وهيام الأندلسي بالحدائق الغناء، والأصوات الشجية العذبة.

---

[1]- السرقسطي سعيد بن فتحون، من أدباء، ق5هـ.

[2]- ابن بسام، الذخيرة، المصدر السابق، ق1، 692/1.

[3]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 122/5.

كما عبر الشاعر أبو عامر بن مسلمة في أواخر عهد الخلافة الأموية وأوائل عهد الطوائف عن الروح العامة الهائمة في دنيا الفن والمتعة فقال: [مجزوء الخفيف]

يا نديمي قُم إصطبَحْ وعلى العُودِ فاقْتَرِحْ
إنَّما العيشُ بالسّما عِ وبالنّاي والقدَحْ[1]

وفي هذين البيتين رسم الشاعر صورة للمجلس الغاص بالناس، والمزدهي بالموسيقى والغناء اللذين يراهما الشاعر أنهما العيش كله، وبخاصة إذا توفر وجود العود والناي والقدح حسب قوله .

وما تجدر الإشارة إليه هو أن الغناء والشرب قد تلازما حتى كان افتراقهما يدعو إلى التعجب والتساؤل من قبل الظرفاء والمجان، وقد قدم لنا الشعر معلومات عن ذلك منها قول الشاعر الفنان محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة:

عناءٌ يلذُّ ولا أكؤسٌ تُسكّنُ من لوعةٍ طائشةْ
وعَجَبٌ كيفَ يشدُّ وطائرٌ بروضٍ منابتهُ عاطشةْ[2]

مع العلم أن رجال الدين كانوا ستنكرون الغناء والاستماع إلى الموسيقى، بل كانوا يعدون الاشتغال بهما من الأمور المنكرة التي لا تليق بكرام القوم، حتى أن بعضهم كان يأمر بكسر آلات اللهو.

ذكر ابن سعيد في حديثه عن صفات أهل الأندلس إنكارهم لإظهار أواني الخمر، وآلات الطرب ذوات الأوتار، وإن كان في هذا القول شيء من التعميم والمبالغة، لأن الشقندي يروي أنّه من مفاخر إشبيلية كون واديها لا يخلو من مسرّة، وأن جميع

[1]- الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن عامر، البديع في وصف الربيع، تحقيق هنري بيريس، الرباط: 1940م، ص 152.

[2]- الضبي، المصدر السابق، ص 214.

أدوات الطرب والشرب تمر فيه غير منكرة ما لم يؤد السكر إلى شرّ وعربدة. وقد ذكر صاحب نفح الطيب، أنه جرت مناظرة بين ابن رشد وابن زهر في حضرة ملك المغرب المنصور يعقوب، فقال ابن رشد: ما أدرى ما تقول: غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية، فأريد بيع كتبه حُملت إلى قرطبة حتى تباع فيهان وإن مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية[1]. هذا وقد راجت سوق الموسيقى والغناء في الأندلس حتى ظهر فن الموشحات تلبية لحياة اللهو والمجون التي عمت البلاد.

وكان المعتضد بن عباد (ت461هـ) ملك إشبيلية وصاحب الشخصية الفريدة يمثل الإنسان الأندلسي في كثير من الجوانب، منها الجمع بين النقيضين في توازن، يقول: [الطويل]

قسمتُ زماني بينَ كدٍّ وراحةٍ فللرَأي أسحَارٌ وللطيبِ آمالُ
فأُمسِي على اللذاتِ واللّهْوِ عاكِفا وأضْحَى بساحاتِ الرئاسةِ أختالُ
ولسْتُ على الإدمانِ أُغفِلُ بُغْيتِي من المجدِ إنِّي في المعالِي لمحْتالُ[2]

وكما قال الملك الشاعر، أن الأندلسي يعيش حياته طولا وعرضا، حيث يكد ويجد في بناء مجده وعزه وجاهه، وفي الوقت نفسه لا ينسى راحة النفس، فيخصص لها جانبا من اللهو، ليستمتع – حسب رأيه- بالملذات فيجالس الندامى ويشرب الخمر ويستمع إلى الموسيقى والغناء.

كما كان الوزير الشاعر محمد بن مالك على عهدي الطوائف والمرابطين صادقا حين عبر في مجلس غناء عن روح الأندلسي المفتون بالفن، المنفعل بالأنس والطرب،

[1]- ينظر: المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 188/3 وما بعدها.

[2]- ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، ط1، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1963، 46/2.

فقال: [الخفيف]

لا تلُمني بأنْ طربتُ لِشَجْوٍ يبعثُ الأُنسَ فالكريمُ طَروبُ

ليسَ شَقُّ الجيُوبِ حقّ علينا إنمّا الشأنُ أنْ تُشَقَّ القلوبُ[1]

وهكذا يرى الشاعر أنه ليس من حق أحد أن يلومه على الطرب والأنس لأن الطرب من شيم الكرام الذين كتب عليهم شقّ القلوب بالأنس والطرب، وهذه بعض سمات الرجل الأندلسِي الذي كان يهيم حبا بالفن والموسيقى والجمال، وإن كان العربي منذ العصر الجاهلي فنانا ذواقا، تطربه الكلمة الطيبة، وتهزه الموسيقى الشعرية العذبة.

ومن عجيب ما ذكر لنا المقري عن انفعال الأندلسيين بالغناء والموسيقى وتقديرهم لها بما فيهم رجال الدين، إذ يحكى أن القاضي أبا عبد الله محمد بن عيسى من بني يحي الليثي، أنّه خرج إلى حضور جنازة بمقابر قريش، ثم نزل وهو في طريقه إلى المصلى عند صديق له، فقدم له طعاما وأمر جارية له بالغناء فغنت: [الكامل]

طابَت بطِيب لثاتِكَ الأقداحُ وزهتْ بحمرةِ خدّك التُّفاحُ

وإذا النسيمُ تُنُسّمتْ أرواحُه طابتْ بطيبِ نسمِكَ الأرواحُ

وإذا الحنادِسُ ألبسَتْ ظَلْماءها فضياءُ وجهِكَ في الدُّجَى مصباحُ[2]

فكتب القاضي هذه الأبيات على ظهر يده، وخرج من عند صاحبه، وقد رُئي وهو يكبر للصلاة على الجنازة والأبيات مكتوبة على كفّه. والظّاهر هنا أن القاضي الذي أمر بكسر آلات الموسيقى واللهو، إنمّا فعل ذلك بحكم منصبه، ومسؤوليته إزاء المجتمع المسلم حيث كان عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بإزالة تلك الآلات، أما في هذه الحالة الأخيرة –فقد كان فيما يبدو– يصدر عن ضعفه الإنساني أمام وسوسة

[1]– الفتح بن خاقان، المصدر السابق، ص 170.

[2]– ينظر: المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 220/2.

الشيطان، ونزعات النفس الأمارة بالسوء التي تميل بفطرتها إلى الإطراء والإغراء، فعفا الله عنه وعنا.

ومهما كان من اعتراض الفقهاء على الاشتغال بالغناء والموسيقى –كما أسلفنا– إلاّ أن الاستجابة لهما في الأندلس ظلت قوية، حتى اشتهرت مدن أندلسية كبرى بكثرة الملاهي وأدوات الطرب كإشبيلية، على نحو ما مرّ بنا، وإنّه من الممكن القول: إن الغناء والموسيقى على ما فيهما من روعة جمالية فنية، فقد سارا جنبا إلى جنب مع الرفاهية المادية والعظمة السياسية والازدهار الأدبي، منذ عهد عبد الرحمن الأول، حيث إن الناس تقرأ عن قينة له محبوبة كانت تسمى العجفاء، وكانت تغني على العود، ووصفت بأنها من أحسن الناس غناء، حملت إليه من المشرق[1].

هذا وقد ذكر المقري كثيرا من التفاصيل عن زرياب والحفاوة الكبيرة التي حظي بها في بلاط عبد الرحمن، حيث أجرى عليه وعلى أبنائه رواتب عالية، وأقطع له من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها، ومن الضياع ما يقوم بأربعين ألف دينار، وكيف أن الأمير استهواه وأكرمه بالمجالسة على النبيذ والمؤاكلة، وفتح له بابا خاصا يستدعيه منه متى أراده[2]، حتى أن هذه المعاملة السخية أثارت حنق وحسد كثير من نجوم الأندلس في عصره[3]، وينسب إلى زرياب فيما ينسب إليه أنه أدخل إلى الأندلس طرائق جديدة في الغناء، «فأورث بالأندلس من صناعة الغناء، ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بإشبيلية بحر زاخر»[4]، وقد أحدث زرياب تطورا عميقا في الموسيقى العربية، بإضافته وترا

---

[1]– ينظر: المصدر السابق، 141/3 وما بعدها.

[2]– المصدر نفسه، 125/3 وما بعدها.

[3]– ينظر: المصدر نفسه، 315/2.

[4]– ابن خلدون، المقدمة، القاهرة: المطبعة المشرقية، 1327هـ، ص 478.

خامسا إلى أوتار العود، -وكان على أيامه أربعة أوتار فقط- مما أكسب عودهُ أكمل فائدة، كما اخترع أيضا مضراب العود من قوادم النسر[1]، فأبدع في ذلك، وأسس مدرسة فنية لتعليم الموسيقى والغناء في الأندلس، مستعينا بأبنائه وبناته وجواريه، وكلهم ممن مارسوا الموسيقى والغناء[2]، وخلق عشاقا للموسيقى وخلصها من التقاليد القديمة كما ابتدع فنا غنائيا يصور جمال الأندلس ويعبر عن حضارته، وكان جديرا بمقالة الشاعر عبد الرحمن بن الشمر[3]. [الخفيف]

يا عليُّ بن نافع يا عليُّ أنتَ أنتَ المهذّبُ اللّوذَعِيُّ
أنتَّ في الأصل حينَ يسألُ هاشِمِي وفي الهوى عَبْشَمِيُّ[4]

وعلى الرغم من بساطة البيتين، إلاّ أنهما يعبران عن مشاعر إعجاب الشاعر بزرياب وقدره العالي في ميدان الفن. وقد سرى ذكر زرياب الفنان في الأندلس وغيرها، وترك أثره في أكثر من مجال في حضارة الأندلس[5].

أما المغنيات، فكان أكثرهن من القيان، إذ كانت القينة المغنية زينة الحريم المفضلة لإحياء الحفلات الخاصة في قصور الأشراف ودورهم، ومع أن النساء كثيرا ما كن يستمعن إلى الغناء في مجالس مختلفة، غير أنّه اقتضت العادة –أحيانا- أن تخصص بعض الحفلات الغنائية للنساء فقط[6]، وعلى الرغم من تربع القيان على عرش الغناء والطرب في الأندلس،

---

[1]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 126/3.

[2]- ينظر: المصدر نفسه 129/3 وما بعدها.

[3]- عبد الرحمن بن الشمر: شاعر من شعراء بلاط عبد الرحمن بن الحكم، ومنجمه ونديمه.

[4]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 130/3.

[5]- ينظر: المصدر السابق، 125/3 وما بعدها.

[6]- ينظر: ابن حزم، طوق الحمامة، المصدر السابق، ص 109 وما بعدها.

إلا أننا نجد من نساء الأشراف ذوات المكانة السامية في المجتمع من شاركت في دنيا الطرب، مثل ولادة بنت المستكفي، والتي كانت موصوفة بإحسان صنعة الغناء إلى جانب كونها موسيقية وشاعرة أيضا[1].

أما المطربون فقد برزت منهم طائفة كبيرة، وقد سبقت الإشارة إلى زرياب وجهوده في مجال الموسيقى والطرب وكيف أنه أنشأ مدرسة لذلك، ومن الأسماء اللامعة في مجال الغناء بعد زرياب، عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب، الموصوف بأنّه واحد عصره في الغناء، كما كان من أعلم الناس بالضرب على العود، وصنعة الألحان، ومع ذلك كان شاعرا جيدا، يقيم في داره ومع أسرته حفلات غنائية[2]. ومن الفنانين الذين ذاعت شهرتهم في عهد ملوك الطوائف الفنان: أبو يوسف الذي قال فيه الشاعر أبو طالب عبد الجبار، أنه كان فريدا ساحر الأداء، مثله مثل مشاهير الطرب: [السريع]

قُل لأبي يوسف المنتقى الفاضل الأوحدِ في عَصْرِه
ومَن إذَا حرَّك أوتارهُ وظلّ يُبدي السِّحَر من عَشره
تخاله إسحاقَ أو مَعْبَدًا يشدُو بألحَانٍ على وترِه
هل لك أن تُسمعَ مهديكُم وأن تُوفّ الحقَّ من برِّه[3]

5- الآلات الموسيقية:

لقد تميز الأندلسيون بالذوق الرفيع، والحسّ المرهف الملائم للواقع الحضاري الذي كانوا يرتعون فيه، وقد استدعى ذلك انتشار الآلات الموسيقية الوترية الرقيقة النغم، ومن ثمّ جاء العود ليحتل المكانة العليا في دنيا الطرب ومجالس الأنس، وما من مغنية عظيمة أو

[1]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 208/4.

[2]- ينظر: المصدر نفسه، 195/1.

[3]- ابن بسام، المصدر السابق، ق1، 917/2.

من مغن إلاّ كان عوادا ماهرا، ويأتي هنا دور الشعر في التنويه بفضل العود وأنغامه وأوتاره، وقد عبر الشاعر ابن عبد ربه عن إعجابه بالمثنى والمثلث[1]، معترفا للعود بحق السيادة والريادة على الآلات الأخرى، مثل القيثارة والصنوج وغيرهما، فقال: [البسيط]

والعُودُ يخفق مُثناه ومثلثه   والصبحُ قد غردَتْ منه عصافرُه
كأنَما العودُ فيما بيننا ملكٌ   يمشي الهُوينا وتتلوهُ عساكره
كأنّه إذا تمطَّى وهْي تتبعُه   كسرى بنُ هُرْمُز تقفوهُ أساورُه[2]

ومن الذين برعوا في العزف على آلة العود المعتمد بن عباد، وكان هو الآلة المفضلة عنده، حيث يقول: [الكامل]

غَلَبَ الكَرى، وونَتْ مَطَايَا الراحِ   واشَتَقْنَ شَدْوَ حُدَاتِها النُّصّاحِ
فابعَثْ نشَاطَ سَئِومهَا وحَسيرهَا   بغنَاءِ حَادِيهَا أخي الإفصاحِ
ليُقيمَ ذاكَ العودُ من رسْمِ السُّرَى   ويعودَ في الأجسامِ بالأرواحِ
فنسيَر في طُرقِ السُّرورِ ونهتدي   بخفيهِن بأنْجُمِ الأقداحِ[3]

فالشاعر هنا يستدعي عودا للغناء من أحد أصدقائه، لأنه – حسب رأيه– الآلة المفضلة التي تبعث الأنغام الساحرة، القادرة على إيقاظ السّمار، وطرد السأم عن أعينهم، مع إعادة الأرواح الهائمة إلى أجسادهم المتعبة بالسهر الطويل والأنس المقيم.

---

[1]– المثنى والمثلث: أنغام تنبعث من أورتار العود، وكان للأندلسين علم بسر تلك الأنغام، فقالوا: الزير أول أوتار العود، والمثنى: ضعف صوت الزير، في الغلظ، ثم المثلث وهو ضعف صوت المثنى في الغلظ وأخيرا البم وهو أعلى أوتار العود صوتا، ينظر: غارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة حسين نصار، بيروت: دار الطباعة الحديثة، 1956، ص 53 وما بعدها.

[2]– ابن عبد ربه، المصدر السابق، ص 92.

[3]– المعتمد بن عباد، المصدر السابق، ص 5.

أما الشاعر الذي يمتلك موهبة الكتابة والنظم ولا يستطيع العزف والغناء، فيرسل في طلب المغنية يستدعيها للحضور لإطرابهم بعزفها وغنائها، كما فعل الشاعر أبو عامر بن رينقَ، مع المغنية هند جارية عبد الله بن مسلمة الشاطبي، ورسالته هي قوله:

يا هندُ هل لكِ في زيارةِ فتيةٍ نبذُو المحارمَ غيرَ شرْبِ السَلْسَل
سِمعُوا البلابلَ قد شدَوا فتذكروا نغماتِ عودِكِ في الثقيل الأوّلِ

وكانت دعوة الشاعر لهند صريحة، فهو يرجوها أن تزورهم لتتحفه وضيوفه بشدوها وإيقاعها لأنهم يتحرقون شوقا إلى فنها وبخاصة بعد سماعهم لألحان البلابل الشادية التي ذكرتهم بها. ولبت هند دعوة الشاعر مقدمة بيتين من الشعر في الوزن والروي نفسه:

يا سيدًا حازَ العُلا عن سادَةٍ شمِّ الأنوفِ من الطرَازِ الأول
حسبي من الإسراعِ نحوك أنّني كنتُ الجوابَ مع الرسولِ المقبلِ[1]

وقد عبرت عن حسن تقديرها للشاعر، فهو السيد الذي حاز المعالي ومراتب السيادة بأنفته وعزة نفسه، لذلك فهي تقول: إنّه ليس أمامي سوى الإسراع نحوك، وتلبية طلبك بقدومي مع الرسول الذي أرسلته في طلبي.

والمعلومات التي نقلها لنا الشعر عن الأندلسيين تنبئنا بفهمهم للموسيقى ومعرفتهم بآلاتها، مما يدل على مستواهم الحضاري الرفيع، والذي يلخصه الشاعر ابن هذيل في قوله:

ومُؤلفِ الأوصالِ يَخْتَلِفُ الصّدَى فيه فتحسبُ صوتَه تغريدًا
رَقّتْ معانِيهِ برقةِ أربعٍ صارتْ عليه قلائدًا وعقودًا
فكانَ بلبلَ صائفٍ في صدره يصلُ الأغاني مُبْديًا ومعيدًا[1]

[1]- المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، 4/293-294.

وهذا وصف دقيق وتصوير رائع لأوتار العود الأربعة التي تنبعث منها الألحان الرقيقة العذبة كأنها أنغام بلبل.

والملاحظ أنه كلما كانت معرفتهم بالموسيقى وبآلاتها دقيقة، وقائمة على أسس علمية، كلما ازداد تقديرهم للمغنيين والمغنيات، وازداد شغفهم بالغناء ووسائله، فوصفوا الآلات الموسيقية، والعازفين عليها وصفا دقيقا. فهذا الشاعر أبو الوليد النحلي يحدثنا عن تأثره البالغ بمغنية فيقول:

ولا عبة الوشاح كغصن بان لها أثر بتقطيع القلوب
وإذا سوت طريق العود نقْرا وغنّتْ في مُحبٍّ أو حبيبٍ
فيمناها تُغذُّ بها فؤادي ويُسْرَاها تعُدُّبها ذُنوبي[2]

وإذا كانت هذه المغنية تجيد العزف على العود كما تجيد الغناء، فإنهم عرفوا آلات وترية أخرى غير العود، كالمزّهر الذي صوره لنا ابن عبد ربه في قوله:

صُنِعتْ كأجنحة الحمائم خِفةً كادت تطيرُ مع الرياحِ الخفّق
وهَفَتْ على أيدي القيان كأنّها رخَمٌ ترفرفُ في السماء وتلتقي
وتكلمتْ تحت القضيبِ كأنّما نغماتُها من جنّةِ المتشوِّقِ
يتكسّرُ الماشي بها فتَرَى له خُيَلاَءَ جَبَّارٍ وخفّةَ أولـقِ[3]
يُؤخّرُ الأقدام بعد تقـدُّمٍ رقص الحبابِ على الغدير المتأق[4]

---

[1]- ابن الكتاني، كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تح: إحسان عباس، بيروت، 1982، ص 106.

[2]- المقري، نفح الطيب، مصدر سابق، 408/4.

[3]- الأولق المجنون.

[4]- ابن الكتاني، المصدر السابق، ص 108، المتأق: الملآن.

تصور الأبيات إعجاب الشاعر بهذه الآلة حيث يقول إنها آلة خفيفة على الأيدي كأجنحة الحمام، وتظهر خفتها في تلك الحركات الخفيفة عليها من أيدي القيان المبدعات وإذا ما وقع عليها القضيب تكلمت بأنغام رقيقة عذبة كحنان الولهان المتشوق.

ثم يأتي من الآلات التي ذكرها شعرهم، الرباب، التي أشار إليها الشعراء أيضا لأنها من الآلات والوترية، وهي شبيهة بالعود في مظهرها، ولها ألحان مؤثرة وشجية على نحو ما وصفها ابن عبد ربه إذ قال:

يخالفُ العود في تصرُّفِهِ وهو على خَلْقِهِ وإنْ صَغُرا
كأنّه في يديْ محركه ينشرُ قلبِي به وما شَعُرا[1]

كما رسم الشعر صورة للطنبور وتحدث عن جمال موسيقاه:

له لسانان من قرنٍ إلى قدم لا ينطقان بغير السّحر والحكم
كأنّ أولَهُ من حيّةٍ سكنت إلى لبانة حقٍّ غضةِ العنمِ[2]

ويذكر الشعر أن الأندلسيين عرفوا أيضا الآلات الصاخبة، كالطبل، والدف والقضيب وما إليها من آلات القرع شبه البدائية ولنا أن نتصور أيضا تذوقهم لهذه الآلات، واستمتاعهم بها، فقد ذكر لنا المعتمد بن عباد تمتعه بغناء قيان مبدعات، يُغنين بمصاحبة آلتين من الآلات هما "المزهر" وآلة أخرى للضرب عليها تسمى "التريك" فقال:

وإذا تغنّتْ هذه في مزْهرٍ لم تألُ تلك على التريك غناء[3]

أما الشاعر أبو جعفر أحمد اللمائي، فقد صور لنا استمتاعه بالاستماع لمغن بارع بمصاحبة آلة القضيب، فقال:

---

[1]- المصدر نفسه، ص 108.

[2]- المصدر نفسه، ص 109.

[3]- المعتمد بن عباد، المصدر السابق، ص 28، التريك: آلة حديدية

غنّى وللإيقاعِ فو ق بيانِ منطقهِ بيانُ
فكأنّما يدُهُ فمٌ وقضيبُه فيها لسانُ[1]

وإذا كان الأندلسي قد أغرم بالشعر لأنه من أرقى مقومات الحياة في كل زمان ومكان، فإن الموسيقى والغناء والرقص كانوا من مقومات حياته أيضا، وقد رأينا كيف أقبل العرب في الأندلس – خاصتهم وعامتهم- على تلك الفنون، فدفعهم شغفهم بها إلى تهيئة الأسباب لذلك، كاقتناء الجواري المغنيات بأثمان باهظة من بغداد والمدينة وغيرهما ويظل زرياب مثلا قائما على حسن تقديرهم لفني الموسيقى والغناء وأربابهما، وقد أشرنا سابقا إلى المكانة المرموقة التي حظي بها ذلك المغني في قصر عبد الرحمن بن الحكم.

إلاّ أن أسلوبه في الغناء لم يمحُ من أذهان الناس وعقولهم مشاعر الحب المستمر للغناء المدني، كما تشير إلى ذلك هذه الأبيات التي نظمها المعتضد بن عباد:

أتتك أمُّ الحُسُنِ تشدو بصوتٍ حسنِ
تمدّ في ألحانِها مدّ الغناءِ المدَنِي
تقودُ منّي ساكنا كأنّني في رَسَن
أوراقُها أستارُها إذا شدت في فنن[2]

وربما ولعلهم الشديد بالموسيقى والغناء هو الذي دفعهم لابتداع فن الموشحات الذي توجوا به جبين الفنون كلها وبخاصة فن الشعر في الأندلس.

ويمكننا القول: بإن هذه الفنون تعدّ مظهرا راقيا من مظاهر الحضارة في الأندلس وأن الأندلسيين كان لهم أسلوب سام في تذوق الحياة بمقاييسها المعاصرة.

---

[1]- ابن سعيد، المصدر السابق، 447/1.

[2]- ابن بسام، المصدر السابق، ق2. 30/1.